زينب التاريخ والزبّاء الأسطورة

عدنان البني

المديرية العامة للآثار والمتاحف ـ سورية

أكثر الناس الذين ألاقيهم، وبعض الأدباء والعلماء قانعون بأن قصة زينب ملكة تدمر هي قصة «الزباء المنتقمة». ولم يكن ذلك مستهجناً في قديم الزمن حين كانت النصوص التدمرية المنقوشة مجهولة وكذلك المسكوكات والمصادر المكتوبة، وحين كان الاعتماد على الرواية الشفهية المنقولة التي تبدأ بشكل وتتطور بأشكال شتى، حتى تصبح القصة التاريخية أسطورة شيقة لا تمت إلى الأصل إلا بصلات واهية.

الأسطورة جعلت من الملكة زينب، التي هي زوجة الملك التدمري أذينة وأم ولي عهده وهب اللات والوصية عليه، شخصية جديدة غيّبت، في وقت ما، كل معالم الشخصية الأولى، فلم يبق منها إلا مكانها وهو تدمر، واسم الزباء المحرّف عن «بت زبّانيْ» الذي هو اسم الملكة زينب في النصوص التدمرية[1].

إن الزمن الموضوع لأسطورة الزباء المنتقمة مقارب لزمن زينب (٢٦٧-٢٧٢م) وذلك بالمقارنة مع الأزمنة المفترضة لبعض أبطال الأسطورة، مثل جذيمة الأبرش وعمرو بن عدي. وذلك أمر بديهي، لأن الملكة الأسطورة هي ظل للملكة الحقيقية مسقط على أحداث قبلية قديمة يُرجّح حالياً أنها جرت خلال أواخر القرن الثالث أو مطلع القرن الرابع الميلاديين. إن «الزباء المنتقمة» نُسجت حول الملكة زينب، فخلقتها من جديد محجّمة في حدود الانتقام العشائري، وفي البقعة الصغيرة نسبياً بين الحيرة وتدمر، ومختلفة تماماً عن زينب الأصل، من حيث السيرة ومعالم الشخصية ومن حيث الآفاق ومن حيث الأهداف والبداية والنهاية.

وجذيمة الأبرش أو الوضّاح هو من مشاهير ملوك العرب في جنوب العراق ومن أهل القرن الرابع الميلادي، ينسب له تأسيس الحيرة والأنبار. وإن وجود جذيمة الأبرش في شمال الولاية العربية[2] تشهد عليه كتابة أم الجمال المحررة بالنبطية واليونانية[3]. وهذه الكتابة تذكر مربياً لجذيمة الأبرش وقد وثّق هذا الاكتشاف نصاً آخر اكتشف قبله في موقع النمارة على قبر امرئ القيس بن عمرو بن عدي. ولقد أصبحنا نعرف بصورة صحيحة أن جذيمة هو ملك اللخميين[4].

ويبدو أنه حصل في مطلع القرن الثالث الميلادي عند ضعف دولة الفرثيين اتحاد أو تجمع قبلي أو عشائري باسم تنوخ. ولعل القبائل المجتمعة هي من عرب الشمال وليست من اليمن[5]. ولقد أتت هذه القبائل إلى أطراف الفرات و «استقرت وتنوخت» وعملت على حماية القوافل التجارية المارة من منطقة سكناها، وأقامت علاقات مع الإمارات والدول المجاورة. ونتج عن ذلك تأسيس سلالة اللخميين في الحيرة. وقد ذكرت المصادر العربية ذلك كثيراً وخاصة

الطبري. ولكن العلماء لم يكونوا يقبلون مضمونها. وهناك حالياً ربط بين التوتر الذي حدث في أواخر حكم أذينة وزينب في سورية والولاية العربية وتحرك تجمع تنوخ وقيام سلالة اللخميين. ويرى بوروسوك أن تنوخ برزت عدواً قوياً لتدمر. وعندما قررت زينب الثورة ضد الرومان كان عملها، في رأيه، هجوماً على جيرانها من القبائل العربية بقدر ما هو ردة عن روما[6]. وهذا الرأي يمكن أن يكون موضع نقاش في غير هذه المناسبة.

خلاصة السيرة السياسية لزينب ملكة تدمر:

حين قتل أذينة ملك تدمر الفذ مع هيروديس ابنه الأكبر، وهو من زوجة أولى أو ثانية، في مدينة حمص وفي ظروف يكتنفها الغموض يرى البعض أنها من تدبير زينب، ترك ثلاثة أولاد أكبرهم ابنه الصغير وهب اللات، فقامت أمه بالوصاية عليه، وبدأت بمشروعها الكبير في الاستيلاء على الشرق ثم الغرب، فضمت سورية بكاملها ومصر وآسيا الصغرى. ثم اتخذت وابنها ألقاب الأباطرة في حدود ٢٧٠م. وصكّت في أنطاكية الاسكندرية نقوداً مستقلة تحمل اسمها واسم ابنها وصورتيهما. وتقاعس الإمبراطور كلوديوس عن المسير لمحاربتها. لكن الإمبراطور الجديد أورليان تقدم لحربها بجيش قوي. وكانت معركتا أنطاكية وحمص في صالح الرومان، فتحصن التدمريون مع ملكتهم في عاصمتهم وقاوموا الرومان مقاومة ضارية. وسقطت زينب أسيرة وهي تحاول طلب النجدة من الساسانيين، فاستسلم التدمريون في خريف ٢٧٢. ثم قتلوا الحامية الرومانية. وأدى ذلك إلى نهب مدينتهم الجميلة وتخريب معالمها[7].

ويختلف الأخباريون في نهاية هذه الملكة الشجاعة النبيلة والجميلة. وقد جاء في تاريخ الإمبراطورية الرومانية المعروف باسم التاريخ الأوغستي[8] أن زينب أنهت حياتها بهدوء كسيدة رومانية. وإن ڤيلتها كانت قائمة بين قصر هادريان الشهير في بلدة تيبور (التيڤولي قرب روما)، في المكان المسمى «كونكه» الذي كان يحمل في أيامه اسم «زنوبيا». ويضيف أن أورليان قتل بعض أولادها أما الآخرون فقد ماتوا ميتة طبيعية - ولعله يقصد أفراد أسرتها، إذ أن أولادها لم يتجاوزوا الثلاثة (وهب اللات وتيم اللات المعروف باسم تيمولاوس وثالث قد يكون اسمه حيران)[9] ويؤكد أنه في أيامه كان هناك بعض المتحدرين من نسل زينب في نبلاء الرومان. على أن المؤكد وجود نصب ضخم في روما من القرن الرابع الميلادي يحمل اسم سيدة تسمى سبتيميا ونسبتها إلى أذينة[10].

أما فلافيوس ڤوبيسكوس، من القرن الرابع الميلادي، فيذكر في التاريخ الأوغستي في القسم الخاص بحياة أورليان أن زينب، بعد أن مشت في موكب نصر أورليان، الذي يسهب في وصفه، عاشت عيشة بسيطة في مكان حُدِّد لها[11]. وقد تبعه في ذلك الكتاب المتأخرون مثل جورج لوسانسيل[12] وزوناراس[13].

ويذكر زوسيموس من النصف الثاني للقرن الخامس الميلادي أن زينب مرضت في الطريق لامتناعها عن الطعام وظلت على تلك الحال حتى ماتت[14].

ويروي مالالاس أنها قتلت بعد المعركة مع أورليان[15]. وذلك يتناقض مع خطاب أورليان الذي قال فيه إنه أبقى على حياتها لخدماتها وللاستفادة منها في التعامل مع الفرس.

أما أوتروبوس[16] وسان جيروم[17] فيذهبان تقريباً إلى ما ذهب إليه التاريخ الأوغستي، ويقولان إنها عاشت بعد موت أورليان وتزوجت رجلاً من مرتبة الشيوخ وأنهت أيامها في ڤيلا ببلدة تيبور (التيڤولي قرب روما).

وفي عام ١٩٩٠ زعم الطبيب الايطالي الشهير ديلفو غاليلو ماروني، الذي يملك قصراً ومزرعة في منطقة التيڤولي بجوار روما، أن بقايا قصر زينب موجودة في أرضه وكذلك بقايا جسر الامبراطور أورليان. وقد أوفدتنا السيدة وزيرة الثقافة إلى هناك لتقصي يالأمر. ولدى التدقيق لم يتضح أي شيء يدل على قصر لزينب.

وفي تعريب كتاب عن حفريات منطقة اللاتزيو، من تأليف ستيفانو كابرال وفاوستو ديل ري، وفي الفصل الرابع عشر منه المسمى ڤيلا زنوبيا، يُذكَر أن المركيز

ابن الدوق فيديريكو تشيزي وجد قبضة باب ذهبية وإناءً فضياً قديماً في تلال فيرو في قبر إحدى بنات زنوبيا. تلك هي الحكايات المروية عن زينب الحقيقية فلننتقل إلى الأسطورة.

خلاصة الروايات عن الزبّاء الأسطورة:

في أيام جذيمة الأبرش بن مالك اللخمي، كان هناك رجل يسمى عمرو بن الظرب بن حسان بن أذينة بن السميدع بن هوبر، كما جاء في الطبري والمقدسي وابن خلدون وحمزة الأصفهاني[١٨] جرت بين عمرو بن الظرب وبين جذيمة الأبرش حروب قتل فيها عمرو بن الظرب فملّك قومه مكانه ابنته الزباء ابنة عمرو. ولهذه الابنة أسماء تختلف حسب الروايات. وأبو حنيفة الدنيوري من أهل القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) الذي كان أقدم من بحث موضوع الزباء بعد ابن الكلبي، يتفرد بتسميتها مارية ابنة الزباء الغسانية. وهي لديه ملكة الجزيرة ثم يروي بقية قصتها مع جذيمة. وكانت الزباء جميلة حازمة عاقلة تبغض الرجال (في هذه الصفة تلتقي بزينب الملكة) وتحسن فن الحرب. فعزمت على الثأر من قاتل أبيها ودعت جذيمة إلى قصرها، فنصحه قصير بن سعد بعدم الثقة بدعوتها. لكن جذيمة لم يبال بالنصيحة وأتى لزيارة الزباء فقبضت عليه وقطعت «راهشيه»[١٩] فهلك نزفاً. صمم عمرو بن عدي، ابن أخت جذيمة الأبرش وخليفته، على الثأر من الزباء التي كانت أمنع من عقاب الجو، فاحتال الداهية قصير بن سعد، من حاشية جذيمة ومن رجال عمرو بن عدي، بجدع أنفه وقطع أذنيه، وقصد الزباء شاكياً باكياً زاعماً أن عدوها عمرو بن عدي فعل به هذه الأفعال. فأمنته فاحتال بإدخال جنود عمرو بن عدي في «جوالق» محمولة على الجمال واحتلوا مدينتها. ووصل إليها عمرو بن عدي فمصت السم الذي تحتفظ به في خاتم من خواتمها قائلة «بيدي لا بيد ابن عدي». وتخللت هذه القصة الأسطورة أمثلة موضوعة وشعر. وقد أورد المؤرخون والاخباريون والكتاب العرب كالطبري وابن خلدون وحمزة الأصفهاني والمسعودي وغيرهم أسطورة الزبّاء[٢٠] وقد جمع كوسان دوبرسفال كل ما أورده مؤرخو العرب عن أسطورة الزبّاء[٢١].

نقاط التباين بين سيرتي زينب الملكة والزباء الأسطورة:

زينب: متزوجة، **الزباء**: عزباء.

زينب: ابنة زباي (زنوبيا في اليونانية واللاتينية)، **الزباء**: ابنة عمرو بن الظرب (فارعة، نيلة، نائلة، ليلى، ميسون..).

زينب: لم يكن أبوها ملكاً، **الزباء**: كان أبوها ملكاً على الجزيرة وأعمال الفرات ومشارف الشام ويزعم الميداني في «مجمع الأمثال» أنها ولدت في باجرمي، كما زعم القزويني وابن قتيبة أنها ابنة ملك العراق.

زينب: ليس لها أخت، **الزباء**: لها أخت اسمها زينب.

زينب: تتكلم عدداً من اللغات، **الزباء**: تتكلم العربية فقط وتضرب بها الأمثال وتقول الشعر رغم أن البعض يجعلها رومية(..)

زينب: جيوشها احتلت سورية كلها ومصر والأناضول، **الزباء**: لم تحارب وظلت في حدود تحركات العشائر شمال الجزيرة العربية وجنوب سورية والعراق.

زينب: خصمها الأساسي الامبراطور الروماني أورليان، **الزباء**: خصمها جذيمة الأبرش ومن بعده عمرو بن عدي.

زينب: أسرت وهي في طريقها لطلب نجدة الفرس خلال حصار تدمر، **الزباء**: انتحرت بالسم.

الهوامش :

١- «بت زبّايْ» تعني في الآرامية التدمرية «ابنة زبّاي» و«زبّايْ» صيغة تحبب لاسم تدمري هو «زبدا» وتعني عطاء، أو العطاء. وهذه الصيغة نفسها هي صيغة مختصرة من أسماء تدمرية مثل «زبد لت» و«زبد بل» «زبد بول» (أي عطاء اللات وعطاء بل وعطاء بول). وعليه فإن زبّايْ متطورة على الشكل التالي: زبدلات مثلاً يصبح زبدا ثم زبّايْ. ويعتقد المستشرق وادنغتون أن اسم «زنوبيا» اليوناني-اللاتيني الذي أطلق على الملكة التدمرية، والذي هو مؤنث «زنوبيوس»، هو ترجمة لاسم بت زبّايْ، ومعناه «قوة زوس الحيوية». هذا وقد ذكر الأب رونزفال في مجلة المشرق (١٨٩٨) ص٤٣٩، أن اسمها بت زبينا، وهذا مخالف للنص الوارد على العمود الذي كان يحمل تمثالها في تدمر (راجع كانتينو، الكتابات، ٣-٢٠). وقد زعم فلافيوس فوبيسكوس في التاريخ الأوغستي أن اسم أبيها أخيلوس. كما زعم المؤرخ زوسيموس أن اسم أبيها أنطيوخوس (راجع جواد علي جـ٣، ص١٠٧).

٢- الولاية العربية تعريب الـ «پروڤانسيا أرابيا» التي أحدثها الامبراطور تراجان في عام ١٠٦ ميلادي في مكان المملكة النبطية.

٣- نبطية عربية يونانية.

٤- تعرف سلالة ملوك الحيرة باسم المناذرة أو اللخميين وكذلك آل نصر والنعامنة وآل محرق. وأهم من جمع أخبارهم هشام ابن الكلبي وعنه روت الرواة. وفي رواياتهم تناقض كبير (جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، جـ٣ ص١٥٩).

٥- نبيه عاقل، تاريخ العرب القديم وعصر الرسول، دمشق ١٩٦٩ ص١٧٠.

6- G.W. BOWERSOCK, 1983,
Roman Arabia. Harvard University Press, p. 132.

٧- راجع تفاصيل أكثر في مؤلفنا «تدمر والتدمريون»، دمشق، ١٩٧٨ ص ٧٨-٧٨ وننبه إلى أن هناك مراجع كثيرة عن زينب لكن فيها تمتزج الأسطورة بالحقيقة أو تقتبس من الروايات الحديثة، وقد نعود للموضوع في مقال آخر.

٨- «ثلاثون طاغية» وهو جزء من تاريخ الامبراطورية الرومانية المعروف باسم التاريخ الأوغستي لأن اسم الأوغست لدى الرومان أصبح مرادفاً لاسم امبراطور TREBELLIUS, Triginta tyranni XXVII, XXIX

٩- راجع مقال هنري سيريغ، أبناء الملك أذينة، في الحوليات الأثرية العربية السورية المجلد ١٣، عام ١٩٦٣ ص١٥٩-١٧٢ (H. SEYRIG, Les fils du roi Odainat, *AAAS*. XIII, 1963).

١٠- أورد ذلك الأستاذ ميليك في كتابه التالي: J. T. MILIK, *Dédicaces faites par des dieux (Palmyre, Hatra, Tyr)*, Paris, 1972, p. 320.

١١- فلافيوس ڤوبيسكوس، حياة الأباطرة غاليان وأورليان ويروبوس وفيرموس.

١٢- جورج لوسانسيل وعنوان مؤلفه: *Corpus Scriptorum Historiæ Byzantinæ*

١٣- زوناراس، الحوليات رقم ١٢.

١٤- زوسيموس، التاريخ الجديد، ١، ٥٩.

١٥- مالالاس، الكرونوغرافيا، ١٢.

١٦- اوتروبوس، ٩، ١٣، ٢.

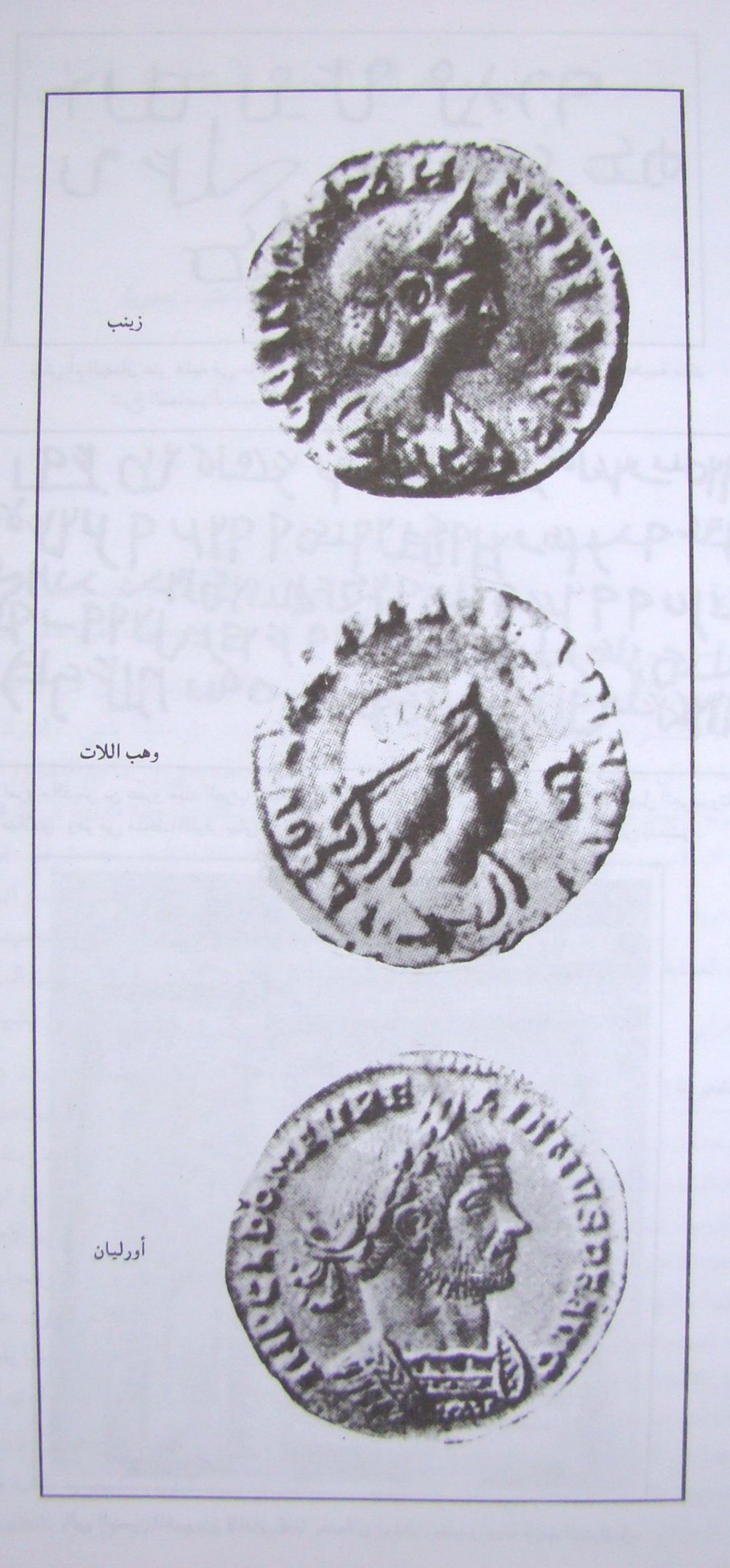
١٧- سان جيروم، «كرونيك» عام ١٩٩٠.

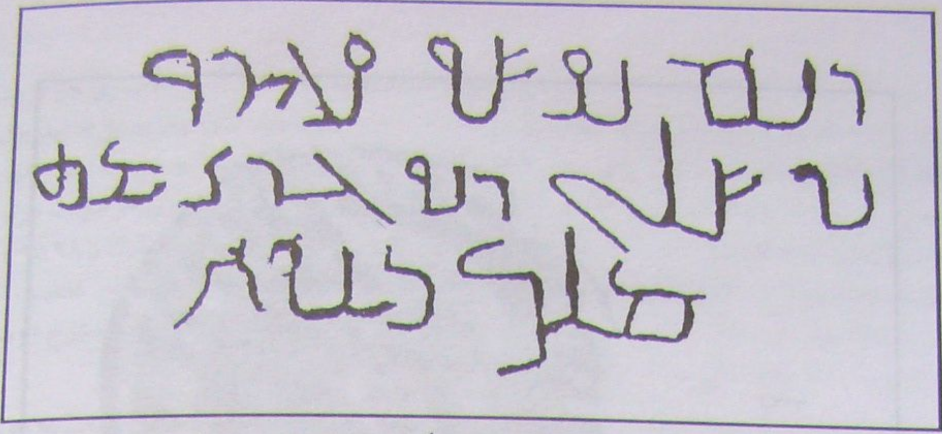
١٨- جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، الجزء الثالث ص١٠٣.

١٩- الراهش هو عرق في ظاهر الكف.

٢٠- راجع جواد علي، المرجع السابق، ص ١٠٣-١٠٧.

21- C. DE PERCEVAL, *Histoire des Arabes avant l'Islamisme*, II, p. 24 et 190.
وقد أوردنا ذلك عن مجلة المشرق عدد أيار ١٨٩٨، ص٢٨ وما بعدها.


زينب
وهب اللات
أورليان



نقش أم الجمال عثر عليه في موقع ام الجمال با لأردن وهو لقبر فهر بن سلبي مربي جذيمة ملك تنوخ المعاصر لزينب. كتب بالخط المتأخر وتاريخه نحو ٢٥٠ ميلادية.

نقش النمارة وهو لقبر امريء القيس بن عمرو ملك العرب وعاصمته الحيرة عثر عليه في موقع النمارة شرقي جبل العرب وتاريخه يعدن ٣٢٨ ميلادي. وهو في متحف اللوفر بباريس ولدينا نسخة جصية عنه في متحف الخط العربي بدمشق.



الى اليمين العمودان اللذان كانا يحملان تمثال زينب وأذينة قرب التترابيل